عظةٌ في أحد الفرّيسيّ والعشّار

أنتوني (بلوم) متروبوليت سوروج

باسم الآب والابن والروح القدس.

كم هو قصيرٌ مثَلُ اليوم، وكم هو شهير؛ ومع ذلك، ما أقوى رسالته، وكم فيه من تحدٍّ...

إنّه قويٌّ في كلماته: يأتي رجلان إلى كنيسة الله، إلى مدارٍ مقدَّسٍ يقع في عالم ضائعٍ عن الله ولكنْ ينتمي إلى الله من دون تحفُّظ: يأتيان إلى مداره الإلهيّ. يدخله أحد الرَّجُلَين بجرأةٍ ويقف أمام الله. يأتي الآخر ولا يجرؤ حتّى على عبور العتبة: إنّه خاطئٌ فيما المدارُ مقدَّس، مثل المكان الذي كان محيطًا بالعلّيقة الملتهبة في الصحراء، والذي لم يستطع موسى دخوله إلّا حافيَ القدَمين، وفي عبادةٍ ومخافةٍ لله.

وكم هي مختلفةٌ الكلماتُ التي نطق بها كلٌّ منهما! يبدو أنّ الفريسيّ يسبّح الله ويمجّده؛ لكن لماذا؟ لأنّ الله خلق إنسانًا مثله، إنسانًا قدّيسًا جدًّا ومُستحقًّا جدًّا لله؛ إنسانًا لا يحفظ جميع وصايا الناموس فحسب، بل يتجاوز ما أمرَ به الله نفسُه وما كان يتوقّعه من الإنسان. في الواقع، يقفُ أمام الله مُسبّحًا ايّاه لأنّه، هو الفريسيّ، بديعٌ جدًّا إلى درجة أنّه مجدُ الله، هو المشرق، هو إعلانُ قداسة الله...

أمّا العشّار، فلا يجرؤ على الدخول إلى مدار الله المقدَّس.

والمثل واضحٌ: الرجل الذي جاء ووقف منسحقًا، خجِلًا من نفسه، عالمًا أنّه لا يستحقّ دخول هذا المكان المقدّس، يعود إلى المنزل مغفورًا له، محبوبًا. يرافقه الله نفسه، هو الذي جاء إلى العالم ليُخلّص الخطأة ويقف إلى جانب كلّ مَن يحتاج إليه ويدركُ حاجته إلى الخلاص، أو لا يدركها.

يعود الفرّيسيّ إلى بيته، لكنّه يعود مُسامَحًا بمقدارٍ أقلّ. ليست علاقته بالله مشابهةً لعلاقة العشّار بالله. يرى نفسَه في المركز، والله في الخارج بالنسبة إليه. يرى نفسَه في قلب الأشياء، والله خاضعٌ له. هذا لا يعني أنّ ما فعلَهُ كان عديم القيمة، بل أنّه، ببساطة، لم يولّد أيّ ثمرِ قداسةٍ في نفسه. كانت أفعاله صالحةً، لكنّ الكبرياء وتأكيد الذات أفسداها وسمّماها. شُوِّهَ جمالُ ما فعلَه تمامًا لأنّه لم يكن موجَّها إلى الله ولا إلى قريبه،

بل حُوِّلَ نحو نفسه. ويقالُ لنا إنّ هذه الكبرياء قد سلبَت هذا الرجل، وأخذت منه ثمارَ أعماله الصالحة، ثمرَ أمانته الخارجيّة لناموس الله؛ وإنّ التواضع وحده كان يُمكن أن يُضفي معنىً كاملًا عليه وعلى عمله؛ وإنّ التواضع وحده كان يمكن أن يحيي أعماله، أن يحوّلها إلى مياه الحياة التي تتدفّق نحو الأبديّة.

ولكن بعد ذلك، يبرز أمامنا السؤال: كيف يمكننا أن نتعلّم أيّ شيءٍ عن التواضع إذا كان هو الشرط المطلق كي لا نكون مثل شجرة التين العديمة الثمر، بل نكون مثمرين، نكون حصادًا وافرًا يمكن أن يغتذي منه الناس؟

بحسب علمي، لا يمكننا الانتقال من الكبرياء والغرور إلى التواضع فجأةً، ما لم يحدث لنا أمرٌ مأساويٌّ يجعلنا نعاين أنفسنا، ونكتشف أنّنا مجرَّدون تمامًا من كلّ ما كان يدعم حالتنا الخاطئة والمدمِّرة والقاحلة. ولكن ثمّة أمرٌ واحدٌ يمكننا القيام به: مهما اعتقدنا أنّنا نمتلك مواهب من جميع الأنواع، في القلب والعقل، في الجسد والروح، مهما كان عملنا مثمرًا، يمكننا أن نتذكّر كلمات القدّيس بولس: يا إنسان! ما الذي نلتَهُ ولم يعطَ لك؟![1].. وبالفعل، يردّد هنا ما قاله المسيح في التطويبة الأولى، التطويبة التي تفتح الباب أمام جميع التطويبات الأخرى، التطويبة التي هي بداية الفهم: طوبى للفقراء في الروح... طوبى لأولئك الذين يعرفون، ليس فقط بعقلهم -لكن على الأقلّ بعقلهم!– أنّ كلّ ما يملكونه هو عطيّةٌ من الله.

لقد دُعينا إلى الوجود من العدم، من دون مشاركتنا في ذلك: وجودنا هو عطيّة! لقد أُعطينا حياةً لم نقدر على أن نخلقها أو نستدعيها بأنفسنا. لقد نلنا معرفةَ وجود الله، وفي الواقع، معرفةً بالله أعمق وأكثر حميميّة - كلّ هذا هو عطيّة! وبعد ذلك، كلّ ما نحن عليه هو عطيّةٌ من الله: جسدنا، قلبنا، عقلنا، نفسنا - أيّة سلطةٍ لنا على هذه كلّها إذا لم يعد الله يؤازرها؟ بإمكان سكتةٍ مفاجئةٍ أن تبتلع فجأةً أعظم ذكاءٍ إلى الظلام. قد تواجهنا حاجةٌ تتطلّب كلّ تعاطفنا وكلّ محبّتنا، ونكتشف أنّ قلوبنا من حجرٍ وجليد... نريد أن نصنع الخير ولا نستطيع. وكان القدّيس بولس يعرف ذلك عندما قال: الصالح الذي أحبّه لا أفعله، والشرّ الذي أكرهه أفعله باستمرار...[2] ويعتمد جسدنا على أشياء كثيرة!

[1] راجع 1 كور 4: 7: "لأنّه مَن يميّزك؟ وأيّ شيء لك لم تأخذه؟ وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنّك لم تأخذ؟" (المعرّب).

[2] راجع رو 7: 19: " لأنّي لستُ أفعل الصالح الذي أريده، بل الشرّ الذي لستُ أريده فإيّاه أفعل" (المعرّب).

وماذا عن علاقاتنا، عن الصداقة التي تُعطى لنا، المحبّة التي تدعمنا، الرفقة؟ كلّ ما نحن عليه وما نمتلكه هو عطيّة. ما هي الخطوة التالية: أليست هي الامتنان؟ ألا يمكننا أن نتحوّل إلى الله، لا كفريسيّ فنفتخر بما نحن عليه وننسى أنّ كلّ هذا هو له، بل نلجأ إلى الله ونقول: "يا إلهي! هذا كلُّه عطيّةٌ منك! هذا الجمال والذكاء والقلب الحسّاس وظروف الحياة، هذه كلّها عطيّة! في الواقع، هذه الظروف كلّها، حتّى تلك التي تُخيفنا، هي عطيّةٌ لأنّ الله يقول لنا [من خلالها]: أنا أثق بكم بما فيه الكفاية لإرسالكم إلى الظلمة لتجلبوا النور! أُرسلكم إلى الفساد لتكونوا الملح الذي يوقف الفساد! أُرسلكم إلى حيث لا رجاء لتبثّوا الرجاء، إلى حيث لا فرح لتبعثوا الفرح، وإلى حيث لا محبّة لتنشروا المحبّة... ويمكن للمرء أن يستمرّ ويستمرّ، ويرى أنّه عندما نُرسَلُ إلى الظلمة، يكون ذلك لنكونَ حضور الله وحياة الله، وهذا يعني أنّه يثق بنا - إنّه يثق بنا، ويؤمن بنا، ويرجو لنا كلّ شيء: أليس هذا كافيًا لنكون ممتنّين؟

إلّا أنّ الامتنان ليس مجرّد كلمة شكرٍ باردة. الامتنان يعني أنّنا نرغب في أن نجعل الله يرى أنّ ما أعطاه لم يُعطَ عبثًا، وأنّه لم يصِرْ إنسانًا ويعِشْ ويمُتْ عبثًا. الامتنان يعني حياةً يمكنها أن تفرِّح الله: هذا تحدٍّ يطرحه هذا المثل بالذات...

نعم، سيكون الأمر المثاليّ لنا أن نكون متواضعين - ولكن ما هو التواضع؟ من منّا يعرف التواضع؟ وإذا كان شخصٌ ما يعرفه، فمن الذي يمكنه إيصاله إلى كلِّ مَن لا يعرف؟ أمّا الامتنان فنعرفه جميعًا. نحن نعرف طرائق صغيرةً له وجوانبَ صغيرةً منه! دعونا نتأمّل في الأمر، ودعونا، بلفتة امتنانٍ، ندرك أنّه لا حقّ لنا في أن نكون في مدار الله الخاصّ - وهو يسمح لنا بالدخول! لا حقّ لنا في أن نكون في شركةٍ معه، أكان ذلك في الصلاة أم في الأسرار - وهو يدعونا لأن نكون في شركةٍ معه! لا حقّ لنا في أن نكون أبناءه، وأن نكون إخوةً وأخواتٍ للمسيح، وأن نكون مسكنًا للروح القدس - وهو يمنحنا ذلك كلّه في عملِ محبّة!

فليتفكّر كلُّ واحدٍ منّا ويسأل نفسه: بأيّة طريقةٍ يمكن له أن يكون ممتنًّا إلى درجة أن يفرح الله لأنّه لم يُعطِ عبثًا، ولم يأتِ ويعِشْ ويمُتْ عبثًا، ولأنّنا تلقّينا الرسالة. وإذا نمَونا في عمقٍ حقيقيّ للامتنان، ففي عمق الامتنان سوف نركع، ونسجد للربّ، ونتعلّم ما هو التواضع - هو ليس ذلًّا، بل هو إجلالٌ له، ووعيٌ بأنّه هو كلّ

ما نملكه، وكلّ ما نحن عليه، وأنّنا منفتحون أمامه مثلما تنفتح الأرضُ الخصبة أمام المحراث وعمليّة البذر، والبذور وأشعّة الشمس والمطر وكلّ شيءٍ، من أجل أن تُثمر. آمين!

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Anthony (Bloom) of Sourozh (1990), "Publican and the Pharisee". *Metropolitan Anthony of Sourozh Memorial Page.*